حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الخط الكوفي

الأستاذ المهندس شوقي جابر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لا بد لي لكي أتحدث عن دور الخط الكوفي في التراث العربي الإسلامي من إيراد إلمامة عن نشوء الكتابة عموماً والخط العربي خصوصاً ثم أتناول الخط الكوفي وصلته بالكوفة ومراحل تطوره وظهور النقط والشّكل عليه. ثم أبين أنواعه وكيف اشتقت منه الأقلام العربية أي ما يسمى (بالخطوط العربية) ودوره في أغناء التراث العربي الإسلامي بالمصاحف والكتب والنقود وتزيين المباني والملابس وغير ذلك من متطلبات الحياة الإنسانية، معتذراً عن إيراد التفاصيل وذكر الشواهد والمراجع اختصاراً للوقت ومن أجل الإحاطة باطراف الموضوع آملاً استحسانكم وداعياً الله تعالى أن يسدد خطى مؤتمرنا ويرفق رواده لما يرضاه لهم أنه سميع مجيب.

يرى البعض أن أول تسجيل للكلام لدى الإنسان الأول كان يعقد الخيوط عدة مرات للاهتداء إلى مكان ما أو للدلالة على حدث ما أو وسيلة للتراسل. ثم رسم الأشياء للدلالة عليها فيما يسمى بالطور الصوري. ثم لجا إلى الرسم التعبيري توسعاً في المعنى. ثم اهتدى إلى تجريد الأشكال ورسمها فيما يسمى بالطور الرمزي ثم استعمل الصور التي يشكل لفظ مضمونها مقاطع مشتركة لعدة كلمات في الطور المقطعي ثم رسم الأشياء للدلالة على أول حرف من لفظها في الطور الصوتي ثم انتقل إلى الطور الهجائي.

ولقد ابتكر الكلدانيون العلامات المسمارية التي كان عددها أول اختراعها ستّمئة علامة ثم قلّصها السومريون واستعملها البابليون والآشوريون ومنها اشتق الخط الأكديّ والصوريّ والحثّي ومنه اشتق العيلاميون خطاً أبطلوا بعده خطهم الصوري. ويرى المستشرق (راولنسون) أن هذه اللغات كلها لم تكن إلا لهجات للغة واحدة استمرت حتى عهد الآراميين والأنباط ثم انتقل الحرف من شكله المسماري إلى الشكل الليّن. وفي آشور سميت اللغة الآرامية بالسريانية نسبة إليهم وإنما استبدلوها بمصطلح النصراني لأنها تسمية وثنية.

ولقد قيل بأن أول من خط بالقلم إدريس(عليه السلام) وهو من أنبياء الكلدانيين واكتشفت في لبنان أحرف هجائية منقوشة على الناروس الحجرى للملك الفينيقي (احيرام) كان عددها اثنان وعشرون حرفاً.

أما عن نشوء الخط العربي فهناك عدة نظريات هي:

١- نظرية الكتاب العرب القدماء: وتعتمد على الأخبار المتواترة التي يوغل بعضها في القدم حتى يبدأ بآدم ويصل إلى إسماعيل عليهما السلام ولنا أن نأخذ منها ما هو جدير بالنظر. فقد ذكر ابن النديم في الفهرست أن أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من قبيلة (بولان) وهم (مرامر بن مرة) الذي وضع الصورة، وأسلم بن سدرة الذي فصّل ووصل وعامر بن جدرة الذي وضع الاعجام.

كما قيل أن نفراً من أهل الانبار من إياد القديمة وضعوا حرف ألف باء تاء ثاء وعنهم أخذ العرب. وقيل أيضاً أن ستة أشخاص من (طسم) كانوا نزولاً عند (عدنان بن أود) وكانت أسماؤهم (أبجد هوّز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت) فوضعوا الكتابة والخط على أسمائهم والحقوا الحروف التي ليست فيها وسمّوها الرّوادف وهي (ثخذ وضظغ). وروى عن محمد بن اسحق، أن الكلام بلغة (حمير وطسم، وجديس، وارم، وحويل) وهم العرب العاربة. وإن إسماعيل(عليه السلام) كبر وتزوج في (جرهم) فتعلم كلامهم. وقال ابن النديم أن الذي كتب العربي (الجزّم) رجل من بني (مخلد بن النظر بن كنانة) فكتب العرب. ويستنتج من جملة من النصوص أن أصل الخط العربي يمني حميري مسند قد جزم أي اقتطع واختزل وانتقل إلى الانبار ثم إلى

الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة. وأن (زياد بن حماد بن زيد) كتب للنعمان الأكبر في المئة السادسة بعد الميلاد. وأن النعمان نسخ أشعار العرب ودفنها في قصره الأبيض. وقد سمى البلاذري في فتوح البلدان أن أناساً من أهل الحيرة علموا آخرين في الشام وأهل وادي القرى.

٢- النظرية الثانية التي ترى اشتقاق الخط العربي من الخط النبطي ويتبناها أكثر المستشرقين وآخرهم الدكتور (غروهما) مستدلاً على ذلك بدراسة الكتابات العربية القديمة والمكتشف منها لحد الآن سبعة نصوص أقدمها (كتابة أم الجمال الأولى) التي يقدر تاريخها بالثلث الأخير من المئة الثالثة بعد الميلاد ويصنفها البعض مع الكتابات النبطية وقد وجدت جنوبي (بصرى الشام) ويليها (نقش النمارة) المكتشف في وادي الشام وكتابة (معبد رم) المكتشف شرقي العقبة، ثم كتابة أم الجمال الثانية وكتابة (زيد) بين قنسرين والفرات والمؤرخة بما يعادل سنة ٥١٢ للميلاد وكتابة (أسيس) المؤرخة بما يعادل ٥٢٨ الميلاد ثم كتابة (حران) المكتشفة شمالي جبل العرب والمؤرخة بما يعادل ٥٦٨ ميلادية والمكتوب معها نص يوناني بنفس مضمونها.

٣- نظرية الأب ميليك والأب ستاركي: الذي يرى أن الخط العربي نشأ من الخط السرياني (الأسطر نجيلي) ناقضاً النظرية السابقة بحجة أن اللقى الأثرية المذكورة آنفاً وجدت في حوران وهي لم تخضع للأنباط إلا مدة يسيرة مستبعداً تاثرها بالنبطية ومتجاهلاً حضور شعبها النبطي وثقافته النبطية ومعتمداً على مقارنة كتابة سريانية بخط حاج مسيحي في دير سمعان بالخط العربي، كما يعتمد على النصوص التاريخية العربية الواردة في النظرية الأولى والتي تقول بأن العرب قد تعلموا الخط من أهل الحيرة والانبار على يد المسيحي (بشر) وهو أخو الأمير الكندى (أخيضر). ويستدلان باشكال الحروف ومشابهتها للكتابة السنطورية. وقد رحبت بفكرته المستشرقة (جانين سورديل) وأن على رأيهما مؤاخذات نتركها للإيجاز.

٤- نظرية المستشرق الهولندي (فان دي براندن) القائلة بأن الكنعانية والعربية نشأتا في سيناء وأشار إلى اكتشاف نقوش بخط يقرب من الخط الهيروغليفي المصري سنة ١٩٠٥، لم تحل رموزه إلا سنة ١٩٤٨ على يد المستشرق (أبريت) الذي أخرج أن (الفباء) هذا الكشف تحتوي على ٢٨ حرفاً وقد انتشرت هذه الكتابة في الشمال فاعتمدها الكنعانيون وطوعوها إلى لغتهم وانتشرت في الشرق على يد أهل (مدين) فاشاعوها بين سكان بادية الشام.

الخط الكوفي:

لقد أطلق هذا الاسم على وليد الخط الذي كان معروفاً في الحيرة والأنبار وذلك بعد نزوح أهل هاتين المدينتين إلى الكوفة التي حلت محل مدينتيهم. وفيها جوِّد ومنها انتقل إلى الحجاز على شكلين (لين ويابس) أو ما يسمى (بالتقوير والبسط).

وبعد ما أصبحت الكوفة مركزاً للخلافة وعاصمة للدولة الإسلامية الكبرى في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) ازدهرت فيها الكتابة ووضعت لها القواعد والأصول وذلك لغرض كتابة القرآن الكريم وشؤون الدولة والسياسة وسائر العلوم والآداب وانتقلت إليها الأيدي الماهرة من الحيرة والانبار وغيرهم فساهمت في إنشاء الشكل المحكم للخط العربي الكوفي. ولا يخفى ما للدين الإسلامي من فضل عظيم في تعلم الكتابة وتحسين الخط

لقد ذكر البلاذري بان الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة في الجاهلية عشرة رجال ثم أصبح عددهم بعد الإسلام أربعين رجلاً من ضمنهم كتاب الوحي. لقد وسم الإسلام الأمم التي دخلت في سلطانه بسمات الإسلام واللغة والخط كمسلمي العراق ومصر والشام وبلاد المغرب وجزيرة العرب. وأمماً أخرى ببعض هذه السمات كالأتراك والفرس ومسلمي الهند والملايو وهي الدين والخط والبعض الآخر بسمتي اللغة والخط وهم مسيحيو العالم العربي وآخرين بسمة الدين فقط كمسلمي الصين. وأن من أسباب تجويد الخط العربي النظر إليه بقدسية لأنه أداة تسجيل الوحي ولغة الكتابة والدولة، ومن الأسباب كذلك تحريم تصوير الأحياء الذي أدى إلى انصراف المواهب الفنية للمسلمين وتفرغهم إلى فنون الخط والتزويق والزخرفة.

ولرسول الله(صلى الله عليه وآله) عدة أحاديث شريفة يوجه فيها الخطاطين إلى صناعة الخط كقوله لمعاوية: ألق الدواة وحرّف القلم وانصب الباء وفوق السين ولا تعور الميم ومد الرحمن وجود الرحيم.

أما علي بن أبي طالب(عليه السلام) فيعتبر المعلم الأول للخط وبه يبدأ رسم شجرة الخطاطين. ومن قوله لرجل رآه قبيح الخط (أطلْ جلفة قلمك وأسئمها وحرّف قطّتك وأيمنها وأسمتها واعدل اتسامك وأطول الفك ولامك). وقوله لآخر: (أدّق القلم فانه أبقى للقرطاس وأوجز للحروف وأكتب).

لقد كان الخط الكوفي آنذاك خالياً من علامات الإعراب والنقط والحليات والزخارف. وبعد أن وضع أبو الأسود الدؤلي

قواعد اللغة بتكليف من أمير المؤمنين(عليه السلام) طلب إليه زياد والي البصرة أن يضع شيئاً يضمنّه القراءة الصحيحة لكلام الله فلم يعره اهتماماً فاقعد رجلاً من أتباعه في طريق أبي الأسود ورفع صوته قارئاً (أن الله برئ من المشركين ورسوله) بكسر اللام فاعظم ذلك أبو الأسود فاجاب زياداً وطلب منه كاتباً فبعث له ثلاثين، اختار منهم واحداً وقال له، خذ المصحف وصيفاً يخالف لون المداد، فإذا رأيتني فتحت شفتيّ بالحرف فضع نقطة واحدة فوقه وإذا كسرتهما ضع نقطة واحدة أسفله وإذا ضممتهما فاجعل النقطة بين يدي الحرف. فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين. وأخذ يقرأ القرآن متانياً والكاتب يضع النقاط وكلما أتم الكاتب صحيفة أعاد أبو الأسود نظرة عليها حتى أعرب المصحف كله وترك السكون بلا علامة.

ثم قام (يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم) تلميذ أبي الأسود في أواخر المئة الأولى من الهجرة بتنقيط الحروف. خوفاً من التصحيف. فقاما باعجام الحروف بنفس لون المداد. لأن النقطة جزء من الحرف وبذلك تميزت عن نقط الشكل التي تكتب بالأحمر.

وقد قام الخليل بن الأحمد الفراهيدي بإصلاح أخير على الخط العربي في أوائل العصر العباسي فابدل النقاط بجرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر وعبّر عن الضمة برأس واو صغير فإن كان الحرف منوناً كررت العلامة والسكون دائرة كرأس الميم أو برأس جيم من كلمة (جزم) وعن الشدة برأس (س) وهمزة القطع برأس عين صغيرة ترمز للحرف الأخير من كلمة (قطع) وعن المد بمختصر كلمة (مد) وعن همزة الوصل رأس(ص) ترمز إلى أنها موصولة. ولم تزل هذه الطريقة إلى يومنا هذا.

ويقال بأن العرب استعملوا النقاط قبل تمصير الكوفة حيث أن في مجموعة (الارشيدوق رينر) في المكتبة الأهلية بفينا بعض الحروف المتشابهة قد نقط وكان العرب الخلّص يعتبرون نقط الكتاب أو شكله سوء ظن بالمكتوب إليه. ولكن الحرص على كتاب الله حمل المتحمسين لوقايته إلى تعميم النقط واختراع الشكل.

وقد قسم المستشرق (فلورى) الخط الكوفي إلى خمسة أنواع: هي المربع الهندسي والمستعمل في المآذن والعمائر.

والكوفي المورق ذي الخارف النباتية الذي انتشر في القرنين الرابع والخامس الهجريين والمشتهر بالتوريق الفاطمي والكوفي المضفر المعقود المترابط الذي انتشر على أيدي السلاجقة والكوفي المزهر (أو المخملي) المرسوم على أرضية مزخرفة نباتية كوريقات الشجر تشمل جميع الفراغات.

والكوفي البسيط الخالي من التزويق والمستعمل في التدوين في القرون الهجرية الأولى.

إن من أسباب تنوع أساليب الخط الكوفي ما أنتجته قرائح خطاطي الأقاليم المفتوحة من الإبداع والابتكار المضافة على الخط بشكل زخارف وحليات وتصرفات هندسية. فنرى أن انتساب الخط الكوفي إلى الأقاليم أو العصور هو لتمييز المكان أو العهد لا لتحديد خاصية معينة فالخصائص بقيت ثابتة. ولقد أورد (أبو حيان التوحيدي) في رسالة (علم الكتابة) اثني عشر نوعاً من الخط الكوفي مما شاع في زمنه هي: (الإسماعيلي المكي والمدني والبغدادي والشامي والأندلسي والعراقي والعباسي والمشعب والريحان والمجوّد والمصري) وترك ذكر أسماء لم يعتبرها مهمة.

ولخط المصاحف الخالي من التزويقات. والمفضل دون غيره في الكتابة بسبب البساطة في تركيبة وحسن تناسقه تقاليد خاصة وفي صناعته ذوق رفيع وقد كتب به الخلفاء الراشدون والصحابة الأجلاء رضي الله عنهم. وفيه لا يبدأ رسم الحرف بنقطة كالألف واللام والدال والراء ويمتنع فيه التجليف وهو بدء الحرف بسن القلم كالواو والفاء، والتشظية التي هي إنهاء الحرف دقيقاً رفيعاً كالحاء والطاء، وطمس عقدة الطاء والصاد والعين والغين ويمتنع فيها الترويس، وخاؤه لا ترنق، أي لا تجمع عراقتها أي كاسها الأسفل وليس له همزة. إلى غير ذلك من قواعد لا يتسع المجال لإيرادها.

إن للخط الكوفي الفضل الأكبر على التراث العربي والإسلامي. فهو أول الخطوط العربية ومنه اشتقت الأقلام- أي الخطوط العربية. فقد ابتدع (المحرر) المتوفى سنة ١٥٤هـ قلم الطومار ثم أعقبه الوزير علي بن مقله المتوفى سنة ٣٢٨هـ فاشتق الخط المسمى بالبديع وأوجد معايير لكتابة خط النسخ والثلث يضبطان بها على نسبة فاضلة، إن زاد عنها قبح وإن قصر عنها سجع وسمي الخط غير الملتزم بالقاعدة دارجاً ونسب هذا الخطاط جميع الحروف إلى الألف فكان كما قيل:

(إذا أقرّ على رقٍّ أناملَه)

(أقرَّ بالرق كُتّابُ الأنام له)

وتلاه في الصناعة علي بن هلال المعروف بابن البواب مبتدع الخط الريحاني وخط المحقق. قال أبو العلاء المعري:

(ولاح هلال مثل نون أجادها)

(بماء النضار الكاتب بن هلال)

ثم برز ياقوت المستعصي واستمر غيره على مدرسته. ويستدل على صلة الرحم بين الخط الكوفي والنسخي، إن الخط المغربي يجمعهما وإن من يقول بأن الخطوط اللينة ليست وليدة الخط الكوفي لأنه بطيء الكتابة وأنه لابد من خط آخر كان

موازياً له لأنّ تادية الأغراض اليومية لا تتحقق مع الإبطاء وأن الخط المكتوب بسرعة يستدير بطبيعته قد اعترف بأنّ خطّي النسخ والثلث هم كوفي سريع لأن خط التحرير اللين الذي كان موجوداً إلى جانب الخط الكوفي والمسمى بالخط الدارج بلا ضوابط ولا يدخل في إطار الخطوط الفنية وقد كان مستعملاً للعقود والرسائل وليس لعظائم الأمور ولم تكتب به المصاحف طيلة ثلاثة قرون. حتى ظهر خط النسخ وليد الخط الكوفي على يد الوزير علي بن مقلة.

لقد نزل القرآن منجماً في اثنتين وعشرين سنة وستة أشهر ويومين فبعد رحيل الرسول(ﷺ) إلى الرفيق الأعلى اعتزل علي(عليه السلام) الناس حتى جمع القرآن. ثم طلب أبو بكر من زيد بن حارثة أن يجمعه ففعل ثم جمع جمعاً آخر في عهد عثمان وكتب على ضوئه عدة مصاحف بعثها إلى الأمصار. وظل القرآن قرابة أربعين سنة غير منقوط ولا مشكول وسمي الخط الذي كتبت به آياته الكريمة بالخط الكوفي المصحفي، الذي استمرت به كتابة المصاحف حتى القرن السادس الهجري حلية وتبركاً لعظمته وجليل روعته، ثم اقتصر على كتابة أسماء السور قبل انحساره نهائياً واستبداله بخط النسخ بعد عهد ابن مقلة.

وللمصاحف خط إملاء ثابت بقي كما هو عليه الآن فالصلاة بالواو وكذلك الزكاة. كما أن الرحمن والعالمين بلا ألف مرسومة... وغير ذلك.

أما عن دور الخط الكوفي في العملات الإسلامية والأختام فإن النقود قد ضربت بالخط الكوفي ابتداء من درهم الخليفة عمر حتى الدينار الأيوبي المضروب بالقاهرة مروراً بدينار عبد الملك بن مروان والنقود العباسية، ونقود الطولونيين بمصر والأخشيديين في فلسطين والفاطميين في مصر ما عدا دينار السلاجقة المكتوب بخط الثلث. وكذلك الأختام المنقوشة على المعادن والأحجار الكريمة، يفضل في كتابتها الخط الكوفي لاستقامته وسهولة حفرة على هذه المواد.

وهكذا أسهم الخط الكوفي وما يزال في خدمة التراث العربي الإسلامي حتى أصبح فناً مستقلاً ومدرسة قائمة بذاتها حققت الملائمة بين الكلمة المسموعة والكلمة المكتوبة فإذا كانت الأولى روحاً فالثانية هي الجسم المجسّد لجمال الروح وهو ما نبه إليه: (ياقوت المستعصي) قبل عدة قرون بقوله: (الخط هندسة روحانية بآلة جسمانية).

ولقد سرى الخط الكوفي بعيداً عن حدود البلاد الإسلامية فكثيراً ما علقت الخطوط الكوفية على أبواب الكنائس أو رسمت على صدور ملابس الرهبان لجمالها واعتدال هندستها. ويقال بان (شارلمان) كان يلبس عباءة صنعت له في صقلية مكتوب عليها بالخط الكوفي إلى جانب الحرف اللاتيني. وقد وجدت عملة ذهبية ضربت في عهد الملك (أوفا) سنة ٧٣٧- ٧٧٦م على وجه كل منها ثلاثة أسطر من الكتابة الكوفية تكاد تكون صورة كاملة لدينار أبي جعفر المنصور وفي صقيلة ضربت عملة تحمل كتابة عربية ولاتينية. وإن ملك الروم قال لسليمان بن وهب: (ما أحسد العرب على شيء حسدي على جمال حروفهم) وإنك لتجد الخط الكوفي أو زخارفه في مبان وعمارات عديدة في أوربا يعتلي العقود والأبواب كما في كنيسة (سان بيير دى ريدر) في فرنسا وكذلك في بلدة (بوى) جنوبي فرنسا ترى الزخارف الكتابية للخط الكوفي في الواجهات.

لقد قال المؤرخ الإنكليزي (أرنولد توينبي): لقد انطلق الخط العربي الكوفي الذي كتب به القرآن غازياً ومعلماً مع الجيوش الفاتحة إلى الممالك المجاورة والبعيدة وأينما حل أباد خطوط الأمم المغلوبة.

سادتي الأماجد:

أشكركم على حسن الاستماع وليكن مسك الختام هذين البيتين الشعريين:

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم
وعدّوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة
بان إله العرش أقسم بالقلم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *